مع سعيد تقيّ الدين...

الدكتور سهيل ادريس

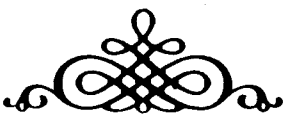

عام ١٩٤٦، كتبت في جريدة «بيروت» دراسة عن مسرحية «نخب العدوّ» لسعيد تقي الدين. ولم أكن أعرف عن المؤلف إلا أنه قد هاجر إلى الفيليبين منذ سنوات طويلة، وجمع من التجارة مالاً وفيراً، وأنه يتأهّب للعودة إلى الوطن.

وحين صدرت مجموعتي القصصية الأولى «أشواق» عام ١٩٤٧، أرسلت نسخة منها هديّة إلى سعيد تقي الدين. وبعد أشهر قليلة، وافاني البريد بمغلّف ثقيل حوى مقالاً طويلاً يقع في ثمانٍ وأربعين صفحة كتبه سعيد تقي الدين بأحرف كبيرة وأسطرٍ هابطة وخطّ لا قاعدة له.

ودفعت المقال إلى عبد الله المشنوق، رئيس تحرير «بيروت ـ المساء» فقرأه مستمتعاً ثم قال:

ـ ولكن المقال هجوم عنيف على مجموعتك، وبوسعك ألاّ تنشره...

قلت: بل أنا أصرُّ على نشره.

وصدر المقال بعد أيام على صفحة كاملة من «بيروت ـ المساء».

وأعترف هنا بأنّ نقد سعيد تقي الدين لـ «أشواق» قد خلّف لديّ آثاراً عميقة، وعلّمني كثيراً. ولا ريب عندي أني أفدتُ، واعياً أو غير واعٍ، من ملاحظاته النقديّة، وبدا ذلك واضحاً في مجموعتيّ التاليتين «نيران وثلوج» و«كلهنّ نساء»، وبدا أوضح في آثاري التالية من القصص والروايات.

ذكر سعيد تقي الدين أنه لم يلق في «أشواق» منجم ذهب ولا عروق تبر «ولكني وجدت الكثير ـ أقول الكثير ـ من الحصى حوامل الذهب. فهل تهتدي إلى المنجم في غدك؟ أو بعد عشرة أعوام؟ لا أدري! هذا سؤال لن يجيب عنه سواك.. ان غايتي في هذه الرسالة أن أدلّك إلى أقصر طريق بين الحصى والمنجم.»

وبعد أن عرَّف سعيد القصّة بأنها «حادثة غير عادية محتملة الوقوع» ذكر أنّ قصص «أشواق» أكثرها حوادث غير عادية ولكنها غير محتملة الوقوع...

ثم أضاف بأسلوبه اللاذع الممتع «وأنت، يا سهيل ادريس، جزل، جميل العبارات، مليونير ألفاظ، ولكنك كأكثر كتبتنا، فقرك في غناك. إذ أنّ هذه الثياب الأنيقة من ألفاظ وتعابير وعبارات تصرفك عن ترويض جسدك، فتكتفي بجمال ما يعلوه من ثياب ولا تطلب في الجسم صلابة عضلات.»

ويعمد سعيد تقي الدين بعد ذلك إلى لهجة السخرية التي هي أفعل في النفس من أيّ نقد مباشر. وأودّ هنا أن أنقل إلى القراء مقطعاً بكامله من هذه السهام الساخرة التي يوجّهها إلى لغتي في «أشواق»:

«خذ هذا الازدواج المعيب الذي يكاد لا يتفلّت منه أي من كتّابنا. إني أنقل إليك بعضاً من عباراتك المزدوجة فيما أنا أقلب صفحات كتابك. «خوالج النفس، ورغائب الروح» (ص ٨)، «أطفئت عيناه فهو لا يبصر» (ص ١٠) إذا أطفئت عيناه فهو طبعاً لا يبصر! ـ «سرّاً يستكنّ بين جنبي هذا الشابّ، وينطوي في جانحتيه» ـ «فرق وفزع» (ص ٩٩) ـ «مطمئنة إليه كل الاطمئنان سعيدة به غاية السعادة» (ص ٨٦) ـ «من حب وودّ وسرور ورضى» (ص ٤٥) ـ «شذى وعطراً» (ص ٢٥) رويدك! أراك انفعلت. تريد أن تقول لي إنك لست من عبيد التقاليد، وأن الازدواج لا يركب قلمك. تريد أن تشرح لي الفرق بين «الاطمئنان والسعادة» و«الحب والودّ». قبل أن تفعل ذلك، هلاّ أفهمتني الفرق بين أن يصمت وأن يسكت؟ (ص ٥٦) غريب أن لم يقم قبل اليوم ناقد ـ فيما أعلم ـ ينادي بنا أن اقتصدوا بالكلمات واقتطعوا هذه العبارة الثانية

التي هي في نثرنا في معظم الأحيان ترديد للعبارة الأولى يُستغنى عنه. هي صدى السجع الذي مَرِضَ به الأدب العربي في أسقم أيّامه (كان في وسعي أن أزاوجها: «وبلي به في زمن نحوله»).

ويتابع سعيد تقي الدين، مستهزئاً:

«وفضلاً عن الازدواج، فإني أراك تؤمن بأنّ أيّ كلمة غير مألوفة هي كلمة حبيبة. لماذا «تصرّمت» أيام؟ (ص ٢٧) أيٌّ أجمل: «تصرّمت» أو «مضت» أو «ولّت» أو «فاتت» أو «انقضت»؟ ثم لماذا «زجّيت لدى صديقك في كيفون تسعة أيام؟ لماذا «زجّيت» لماذا؟ ما عيب «قضيت» أو «صرفت» أو «أنفقت» أو «لبثت» أو «مكثت»؟ ما عيب هذه الألفاظ غير أن الناس كلهم يفهمونها وأنّنا رُبيّنا على خطأ أن البلاغة هي في كتابة ما يصعب فهمه؟

«ولماذا تحدث الأمور في كتابك في «ذات أصيل» و«رأد الضحى»؟ ومن هي هذه الفتاة البيروتية التي تريد أن تتعلّم الكلمات ثم هي لا تزال تتعثّر بأذيالها»؟ (ص ٩) إذا كان في بيروت مثل هذه الفتاة، أرسل لي عنوانها، فإني أريد أن أتبرّك بتلك الأذيال!... ثم قل لي أحقّاً حينما صيّفت في بوارج كنت تطالع «إذا شرعت طيور الدوح تصدح»؟ على علمي أن كلّ الطيور الصدّاحة في لبنان هجرت الدوح وعشعشت في قصائد بشارة الخوري!»

ثم تأتي الضربة القاضية من قبضة سعيد تقي الدين:

«... إنك بين فتى «يصمت ويسكت، و«أيّام زجّيتها» وأمور تحدث في «ذات أصيل» وفي «رأد الضّحى» وبيروتية «تتعثّر بأذيالها» ومطالعة «إذا شرعت طيور الدوح تصدح» ـ قد خلقت جوّاً مصطنعاً يوهم القارىء لأوّل وهلة أنّ ليس هنالك من قصص ولا مواهب، بل إن أحد غلمان المنفلوطي يغامر بنشر كتاب!»

ويحسُّ الناقد بأنه جرح المنقود فأدماه، فاذا به يحاول أن يداوي:

«ولئن آلمتك هذه العبارة، فليفرحك أن تنظر إلى نفسك في اللحظات التي أعتقت بها قلمك من العبودية اللفظيّة. ما أجمل اللّذّة الكبرى «وشعرت بلذّة تقطر من أسناني» (ص٧١) يا جميل! هذا أدب! وما أبدع وصفك للفتى «ظفر بفتاة وهي خجلة مستسلمة، وحين استقرّ بهما المقام نظر إليها وفي عينيه بريق النصر، وعلى شفتيه بسمة متكبّرة، وإذا هي تغضي وتصرف نظرها عنه»، وحين علوت بقارئك إلى الأثير في «سراب. سراب» لقد بلغت الإبداع بأمر بسيط: إعادة لفظة عذبة (ص ١٢). وهات لي كأساً أسكر منها وصُبَّ لي فيها «ليس يهمّني أن تحدّثني عنك، فأنا أراك بملء عيني».

وأتساءل الآن: أصحيح أنّ في هذه العبارات التي جرت على قلمي بدائع وروائع؟ أم أنها أقرب إلى المجاملة وتطييب الخاطر؟

وأذكر هنا، بالمناسبة، أن سعيد فريحة علّق على نقد سعيد تقي الدين لـ «أشواق»، فغمز من قناتي، فكان أن انبرى سعيد تقي الدين، يردّ على صاحب «الصيّاد»، في رسالة وجّهها إليه قائلاً:

«إن ما ظهر في كتاب «أشواق» تحت فيض تلك الأشعّة النافذة التي سلّطتها عليه هو أكثر بكثير من الذي يبقى من معظم كتب هذه الأيام لو سُلّطت عليه مثل تلك الأشعّة. إن سهيل ادريس أظهر تهذيباً رفيعاً وشرف نفسٍ نادراً حين نشر نقداً قاسياً لكتابه من أحد أخلص أصحابه. بل هو كشف عن ثقة نفس يُحسد عليها. ولئن كان يصعب عليك أن تراه بسبب قربه منك، فاعلم أنك تجاور من سيصير جبّاراً. إن في قلبه ورأسه حمماً سيبهر العيون وهجُها» (الصياد، العدد ١٩٧ سنة ١٩٤٨).

وبعد، فقد نقلت أعلاه جزءاً يسيراً من نقد سعيد تقي الدين لمجموعة «أشواق»، وأكرّر أني تعلّمت منه الكثير، وأني مدين له، قبل كل شيء، بتحرُّر لغتي من الترادف والتقعُّر والتغريب، وباكتساب فني القصصي، والروائي فيما بعد، شفافية الإيحاء ورمزيّة الإيماء.

وفي عام ١٩٤٩ طلبت من سعيد تقي الدين أن يُقدِّم لمجموعتي الثالثة «كلهن نساء»، فكتب يتساءل:

«حين نبحث قصص سهيل ادريس، نقابلها بقصص من؟ أبالذين شذّوا عن القاعدة؟ أتعرفهم؟ أم بالذين يدّعون النبوّة مزدهين بطويل اللحى والسبحات؟ أم بالذين يريدون أن يصبحوا قصاصين برغم أنفك وأنفي؟ أما هؤلاء، فمن الواضح أن مؤلفنا أرفع منهم، بل أنك تظلمه إن ذكرته وذكرتهم في نفس واحد. وأما تلك الحجارة التي ليس لها من ميزة عن باقي الحجارة إلا أن الناس يحجّون إليها، فلن نقابل ادريس بهم، فإني ـ والحمد لله ـ لا أرى الناس يتبركون بلمسه. إذن، فلم يبق لنا أن نقايس سهيل ادريس إلا بسهيل ادريس.»

واستطرد سعيد تقي الدين في مقدّمته إلى القول:

«في كتابه «أشواق» كشف المؤلف عن سليقة القاصّ، تعوزها عظمة الفكرة وطرافة الموضوع، وعن انسياب لغة الإفصاح يشوبها الترسُّل، وعن قلق الروح وهو الحافز الأدبي الأهمّ، وعن انعدام الصنعة الميكانيكية، وليس من الصعب درسها وإتقانها. وفي «كلهنّ نساء» أثبت المؤلّف أنه حيّ بسبب أنه نما. فقد اتّسع أفق السليقة، وظهرت الصنعة إلى حدّ كبير من الحذق، وأشرقت ـ وهذه كانت وثبةً لا خطوة ـ طرافة الموضوع.»

وأنهى سعيد مقدمته بقوله:

«صحيح القول أني لا أعتمد الموازين الخفيفة الشائعة حين أقول إن المؤلف جاز إلى القصّة الشوط التمهيديّ، وأنه، وقد سلم من الإخفاق، يتوجّه إلى الإبداع».

* * *

كانت الرسائل التي تبادلتها مع سعيد تقي الدين وهو في الفيليبين، قد ربطت بيننا بصداقة أدبيّة بدأت تتوثّق وتتعمّق منذ سافرت إلى القاهرة (في آذار ١٩٤٨) للقاء سعيد في طريقه إلى لبنان عائداً من الفيليبين.

وقضيت بضعة أيام نعمت فيها بصحبة إنسان شديد الحيويّة والمرح، حاضر البديهة، سخيّ اليد.

وحين عدت إلى بيروت، نشرت في «بيروت ـ المساء» (آذار ١٩٤٨) الحكايات التالية، بلا توقيع.

اضحك مع سعيد تقي الدين

● حين وصل الأستاذ سعيد تقي الدين إلى القاهرة، كتبت بعض الصحف المصرية نبأ وصوله، ولكنها اختلفت في لقبه، فكتبت «الأهرام» أنه قنصل لبنان الفخري في نيويورك، وكتبت «المصري» أنه قنصل لبنان في كشمير. . وسئل الأستاذ تقي الدين عن هذا الاختلاف فأجاب:

ـ لا بأس في ذلك. . فالمعاش على كل حال واحد. .

والمعروف أن القنصل الفخري لا يتقاضى معاشاً. . .

● يطلق المصريون اسمي «طماطم» و«أوطة» على ما نسمّيه نحن «بندورة». وقد استدعى الأستاذ سعيد تقي الدين ذات يوم أحد «الغرسونات» في مطعم بالقاهرة وناوله صحناً وقال له:

ـ أرجو أن تملأ لي هذا الصحن: ثلثه أوطة وثلثه طماطم وثلثه الأخير بندورة.

فانطلق الغرسون وهو يقول: «حاضر يا بيه. .» ولكنه وقف بعد لحظات، والتفت ليرى أديبنا مستغرقاً في الضحك!

● دعا أديب مصريّ الأستاذ سعيد تقي الدين مع بعض الأدباء إلى غداء في حديقة الحيوانات بالقاهرة. وهناك راح أحد الحضور يشيد بصاحب «حفنة ريح» وبكتابه ويطريه. فالتفت إليه الأستاذ تقي الدين قائلاً:

ـ أذكّرك يا صديقي بأنني لست أنا صاحب الدعوة!

● سأل بعضهم سعيد تقي الدين عن عمره فأجاب: حين سافرت إلى الفيليبين، كنت في الثانية والعشرين من عمري. وقد قضت هناك ٢٢ عاماً فيكون المجموع ٤٤ سنة.

فعلّق سهيل ادريس قائلاً: الله يمحق اللي بيصدّقك!

فأجابه الشيخ سعيد: الله يمحق اللي منتظر أنك تصدّقه!

* * *

بعد الدراسة التي كتبتها عن مسرحية سعيد تقي الدين «نخب العدوّ»، ودراسته هو عن «أشواق» ظللنا نتبادل الرسائل الأدبية فترة طويلة، ثم أرسل لي سعيد مخطوطة مسرحيته «حفنة ريح» وأرفقها بمجموعة أقاصيص «موجة نار»، وكلّفني بأن أضمّ إليهما مراسلاتنا وأشرف على نشرها جميعاً في كتاب واحد. وقد حوّل لي مبلغاً من المال للإنفاق على إصدار الكتاب الذي نشرته دار العلم للملايين. وكتبت أخبره أنه بقي من الحوالة مبلغ، فأجابني بأن احتفظ به تعويضاً عن الجهد الذي بذلته في إصدار الكتاب. وحين استكثرت المبلغ أجابني ملحّاً بالاحتفاظ به وأضاف يقول: «لا بدّ أن أحتاج إليك ذات يوم!»

وقد عاد سعيد إلى بيروت ممتلئاً بالرغبة في العمل الثقافي، فانتخب رئيساً لجمعية متخرجي الجامعة الأميركية في دورتين متتاليتين لمدة ثلاثة أعوام ونصف أقام فيها مبنى نادي الخريجين، وأشرف على مجلة «الكلية» التي أرادها منبراً للدفاع عن قضية فلسطين، وأسّس لجنة «كل مواطن خفير» لمكافحة النشاط الصهيوني شعبياً بأساليب عملية.

وكنت ما أزال في باريس، لإعداد شهادة الدكتوراه، حين قرأت في الصحف نبأ انضواء سعيد تقي الدين إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي عام ١٩٥١.

«حصل تحوّل جذري في كتابات سعيد تقي الدين، بعد دخوله الحزب. ويلاحظ أن إنتاجه تطعّم بالعقيدة القومية الاجتماعية، وتناول في معظمه الدفاع عن مبادىء الحزب وإيضاح فضائله والرد على التهم التي ألصقت به، وهي مجموعة ضخمة من المقالات، معظمها نشر في «الأحد» و«صدى لبنان» و«النهار» و«كل شيء»[1].

وحين عدت من باريس وانصرفت إلى العمل لإصدار «الآداب» طلبت من سعيد تقي الدين قصة جديدة من قصصه لتنشر في العدد الأوّل، فوافاني بقصته الرائعة «المرحوم».

وبعد بضعة أشهر من ذلك العام (١٩٥٣) زارني في مكتب «الآداب» بدار العلم للملايين ليهنئني على المجلة ويشجّعني على المضيّ في إصدارها. وقبل أن ينصرف قدّم لي شكاً بمبلغ ألف ليرة لبنانية (ما كان يساوي آنذاك زهاء ٥٠٠ دولار) على سبيل الدعم والمساعدة.

لكنه بعد ذلك بأيام، أرسل لي قصيدة ومقالة وقصّة لأدباء لم أكن قرأت لهم شيئاً. وحين وجدت أن هذه المادّة كلّها كانت مدحاً للحزب القومي الاجتماعي ولزعيمه أنطون سعادة، أعدت المادّة لسعيد، مرفقاً بها شكاً بألف ليرة، رافضاً أن أجعل من «الآداب» بوقاً لأيّ حزب.

وانقطعت الصلة بيننا فترة طويلة قضاها في نشاط حزبيّ محموم. وكنت أتسقّط أخباره من أصدقاء مشتركين عرفت منهم أنه قد أنفق كلّ ماله في خدمة الحزب، وأنّ صحّته كانت تنهار بعد انعطاب قلبه.

وقد زارني ذات يوم من عام ١٩٥٦ فهالني هُزاله، وخلّف في نفسي حزناً عميقاً حين صارحني بأنه آل إلى الإفلاس. ولم يتورّع عن مطالبتي بمساعدة مالية قال إنه سيسلّمها إلى الحزب. فقدّمت له مبلغاً كنت قد أدّخرته لليوم الأسود، لكني قلت له:

ـ هذا المبلغ لك أنت. لقد سبق أن ساعدتني.

وانصرف من غير أن يعلّق بكلمة.

وهاجر سعيد تقي الدين إلى المكسيك وكولومبيا في أيلول ١٩٥٨

---

(١) سعيد تقي الدين: سيرته وانتاجه، تأليف ادفيك جريديني شيبوب، ص ٦٩.

محاولاً أن يجمع المال لحزبه، مخطّطاً للاستيلاء على الحكم في لبنان. لكن نوبة قلبية قضت عليه وهو يستحّم في البحر هناك، في ١٥ شباط ١٩٦٠.

* * *

كتبت عن «سعيد تقي الدين والقصة القصيرة» (الآداب، العدد الخامس أيار ١٩٦٠) فقلت:

«ظل سعيد تقي الدين طوال ثلاثين عاماً في مهجره يغنّي العودة إلى الوطن. ويحمل كلّ ما يكتبه هذا الحنين العميق، عبر مسرحيّات وأقاصيص يمثّل «المغترب» الدور الأول فيها، ويدور موضوعها الرئيسي حول «الأرض».

«ولكن سعيد تقي الدين عاد إلى لبنان ليعيش فيه قلقاً سياسياً عنيفاً ضيّع فيه نفسه وقدَره، وانتمى إلى حركة القوميين الاجتماعيين التي ننكرها نحن القوميين العرب، ثم اضطر إلى مغادرة وطنه في أعقاب الثورة اللبنانية، وعاد إلى المهجر ليموت في أعنف اغتراب روحي عرفه أديب في هذا العصر.

«ولكن الغريب في أمر هذا القصّاص أنه انتهى أديباً حين بدأ سياسياً، فلم يكتب قلمه أثراً فنّياً واحداً بعد انخراطه السياسيّ (...) ولسنا نقصد بذلك أن نحرم على الأديب أن يشارك في الحياة السياسية لوطنه وقومه، فالأديب الحق لا يستطيع إلا أن يشارك، ولكننا نطلب أن يحول دون أن تقتل هذه المشاركة الفنّان فيه.

«والواقع أن سعيد تقي الدين قد انتهى أديباً حين أصبح داعية، وغدت كتاباته بوقاً للتسبيح بمبادئه، وكم كنا نودّ لو أنه ضمّن معتقداته رواية أو مسرحية، أو حتى قصة قصيرة، تكون قبل كل شيء رواية أو مسرحية أو قصّة. لو فعل ذلك، لتضاعف كسب الأدب منه، ولما خسرنا فيه وجهاً من ألمع قصّاصينا المعاصرين».

صدر حديثاً

ايفي بريست

رواية المانية

تأليف: تيودور فونتانه

ترجمة: سناء كرم

هذه الرواية التي تعتبر رائعة فونتانه الكاتب الألماني الشهير هي أيضاً إحدى روائع المدرسة الواقعية الألمانية. كما اعتبرها النقاد بمستوى «آنا كارانينا» لتولستوي و «مدام بوفاري» لفلوبير.

أما شخصية ايفي، شخصية تجتذب القارىء بتصرفها الطبيعي والعفوي، فقد نشأت في أجواء الحياة الريفية الحرّة والبريئة حيث أغرم بها البارون «انشتاين» وتزوّجها، وتذهب «ايفي» بصحبة زوجها إلى مكان بعيد على بحر البلطيق، فتعيش في حالة فراغ دائم. وتنجرف هناك في علاقة مذنبة تجعلها تعسة. وقد شاء القدر أن يكشف زوجها عن علاقتها السرية، فكان أن انقلبت حياة «ايفي» رأساً على عقب. ونحن كقراء ندخل إلى صميم قلبها، نشاطرها أحزانها ونتعاطف معها. وبعد سنين من الشقاء والنفي، تتّصل من جديد بالطبيعة الجميلة، بفضل حياة حرّة تتصالح فيها مع نفسها ومع العالم. وفي النهاية تموت إيفي مذنبة بريئة.

منشورات دار الآداب